تفسير سورةُ الشعراء
من آية (105) إلى آية (122)
اللقاء السادس

المعنى الإجمالي من آية (69) إلى آية (122):

يحكي اللهُ تعالى جانبًا مِن قصةِ إبراهيمَ عليه السلامُ، فيقولُ: واقرأْ –يا مُحَمَّدُ– على قَومِك خَبَرَ إبراهيمَ حينَ قال لأبيه وقَومِه: ما هذا الذي تَعبُدونَه؟ قالوا: نَعبُدُ أصنامًا فنظَلُّ مُقيمينَ على عِبادتِها. قال لهم إبراهيمُ: هل تسمَعُ أصنامُكم دُعاءَكم حينَ تَدْعونَها، أو تنفَعُكم أو تضُرُّكم أنتم أو أعداءَكم؟ قال قومُ إبراهيمَ: لا، ولكِنَّنا وجَدْنا آباءَنا يَعبُدونَها، فنحن نعبُدُها مِثلَهم.

قال إبراهيمُ لهم: أرأيتُم هذه الأصنامَ التي تَعبُدونَها أنتم وأجدادُكم الماضون، فإنَّهم كُلَّهم عدوٌّ لي إلَّا رَبَّ العالَمينَ، الذي خلقَني فهو يُرشِدُني، والذي يَرزقُني الطَّعامَ والشَّرابَ، وإذا مَرِضتُ فهو وَحْدَه الذي يُعافيني، وهو وحْدَه الذي يُميتُني ثمَّ يَبعثُني يومَ القيامةِ، والذي أرجو أن يغفِرَ لي ذُنوبي يومَ القيامةِ.

ثمَّ أتْبَع إبراهيمُ عليه السلامُ ذلك بالتوجُّهِ إلى الله بالدعاءِ قائلًا: ربِّ أعطِني فَهمًا وعِلمًا، واجعَلْني مع الصَّالحينَ، واجعَلْ لي ثناءً حَسنًا في العالَمينَ مِن بَعدي، واجعَلْني ممَّن تُورِثُهم الجنَّةَ في الآخرةِ، واغفِرْ لأبي؛ لأنَّه كان مِن الضالِّينَ، ولا تَفْضَحْني حينَ تَبعَثُ عِبادَك؛ يومَ لا ينفَعُ أحدًا مالُه ولا أبناؤُه، إلَّا مَن لَقِيَ اللهَ يومَ القيامةِ بقَلبٍ سَليمٍ خالصٍ مِن الشِّركِ.

يقولُ تعالى مُبيِّنًا مَشهدًا مِن مَشاهدِ يومِ القيامةِ: وقُرِّبتِ الجنَّةُ يومَ القيامةِ للمُتَّقينَ، وأُظهِرَت النَّارُ للضالِّين عن الحَقِّ، وقيل لهم: أين ما كنتُم تَعبُدون في الدُّنيا مِن دونِ الله تعالى، هل يَدفَعون عنكم أو عن أنفُسِهم عذابَ اللهِ؟!

فطُرِحوا في جهنَّمَ جَميعًا: المعبودون، والعابِدون، وأتباعُ إبليسَ. وقال العابِدون لمعبوديهم في النَّارِ وهم يختَصِمون: واللهِ قد كنَّا في الدُّنيا في ضَلالٍ واضِحٍ عن الحَقِّ حينَ سوَّيْناكم بربِّ العالَمينَ فعَبَدْناكم، وما أغْوانا عن الهُدى إلَّا الضَّالُّون، فما لنا مِن شُفَعاءَ يَشفَعون لنا، ولا صديقٍ خالصِ الوُدِّ، فلو أنَّ لنا رُجوعًا إلى الدُّنيا فنُؤمِنَ باللهِ! إنَّ في ذلك لَعِظةً وعِبرةً، وما كان أكثَرُهم مؤمنين، وإنَّ ربَّك –يا مُحَمَّدُ– لهو العزيزُ القاهِرُ لأعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه.

يحكي اللهُ تعالى جانبًا مِن قِصَّةِ نوحٍ عليه السَّلامُ مع قَومِه، فيقولُ: كذَّبَتْ قَومُ نُوحٍ رسُلَ اللهِ أجمَعينَ؛ لأنَّ تكذيبَهم لنُوحٍ بمنزلةِ التَّكذيبِ لجَميعِ الرُّسُلِ، حينَ قال لهم أخوهم في النَّسَبِ نوحٌ: ألَا تتَّقونَ اللهَ

وتَحذَرون عِقابَه، فتُخلِصوا له العِبادَة وتَترُكوا عبادةَ غَيرِه؟! إنِّي لكم رَسولٌ مِن اللهِ، أمينٌ على وَحيِه، فاتَّقوا عِقابَ الله، وأطيعوني فيما آمُرُكم به وأنهاكم عنه، وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم أجرًا، ما ثَوابي إلَّا على اللهِ رَبِّ العالَمينَ، فاتَّقوا عِقابَ الله، وأطيعوني فيما آمُرُكم به وأنهاكم عنه.

فقال كُبراءُ قَومِه: أنؤمِنُ لك -يا نوحُ- والحالُ أنَّ الذين اتَّبَعوك هم ضُعَفاؤنا وفُقَراؤنا؟! فأجابهم نوحٌ قائلًا: وما عِلمي بما كان يَعمَلُ أتْباعي؟ ما حِسابُهم إلَّا على ربِّي؛ فهو أعلَمُ ببواطِنِهم وبأحوالِهم مِنِّي، لو كنتُم مِن أهلِ الفَهمِ والشُّعورِ بحقائِقِ الأمورِ لَما عِبتُموهم، ولستُ بطاردِ هؤلاءِ المؤمنينَ الذين اتَّبَعوني؛ فما أنا إلَّا نذيرٌ أوضِّحُ إنذاري لكم جميعًا. فأجابه المشركون قائلينَ: لئِنْ لم تَكُفَّ -يا نوحُ- عن دَعوتِك لنا، لَنَرجُمَنَّك، فقال نوحٌ: ربِّ إنَّ قَومي كذَّبوني، فاحكُمْ بيْني وبيْنَهم حُكمًا تُنجِّي به أهلَ الحَقِّ، وتَمحَقُ به أهلَ الباطِلِ، ونجِّني وأتْباعي مِن المؤمنينَ.

فاستجاب اللهُ تعالى له، وأخبَرَ سبحانَه أنَّه أنجاه ومَن كان معه في السَّفينةِ المملوءةِ بهم وبِغَيرِهم، ثمَّ أغرَقَ بعْدَ إنجائِهم مَن بَقِيَ على كُفرِه فلم يركَبِ السَّفينةَ.

ثمَّ قال: إنَّ في ذلك الذي ذكَرْناه لَعِظةً وعِبرةً ودَلالةً على وحدانيَّةِ الله تعالى وقُدرتِه، وما كان أكثَرُ قَومِ نُوحٍ مُؤمنينَ بالله، وإنَّ ربَّك -يا مُحَمَّدُ- لهو العزيزُ القاهِرُ لأعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يُعاجِلُهم بعَذابِه.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿105﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبلَها: قال الرازي: لَمَّا قصَّ سُبحانَه على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خبَرَ موسى وإبراهيمَ عليهما السلامُ تسليةً له فيما يَلْقاه مِن قَومِه؛ قَصَّ عليه أيضًا نبأَ نوحٍ عليه السَّلامُ، فقد كان نبَؤُه أعظَمَ مِن نبأِ غَيرِه؛ لأنَّه كان يدعوهم ألْفَ سَنَةٍ إلَّا خمسينَ عامًا، ومعَ ذلك كذَّبَه قومُه.

قال البقاعي: وأيضًا لَمَّا أتَمَّ سُبحانَه قصَّةَ الأبِ الأعظمِ الأقربِ؛ أتْبَعَها -دَلالةً على وصْفَيِ العِزَّةِ والرَّحمةِ- قصَّةَ الأبِ الثاني، مُقَدِّمًا لها على غيرِها؛ لِمَا له مِن القِدَمِ في الزَّمانِ؛ إعلامًا بأنَّ البلاءَ قديمٌ، ولأنَّها أدَلُّ على صِفتَيِ الرَّحمةِ والنِّقمةِ التي هي أثَرُ العِزَّةِ، بطُولِ الإملاءِ لهم على طولِ مدَّتِهم، ثمَّ تعميمِ النِّقمةِ مع كونِهم جميعَ أهلِ الأرضِ، فقال

(كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ) أي: كَذَّبت قَومُ نُوحٍ بجَميعِ رُسُلِ الله. موسوعة التفسير

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿106﴾

(إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ) أي: حينَ قال لهم نوحٌ -وهو أخوهم في النَّسَبِ-: ألَا تتَّقون اللهَ وتَحذَرونَ عِقابَه، فتُوحِّدوا اللهَ، وتترُكوا عبادةَ الأصنامِ. موسوعة التفسير

قال السعدي: أي: في النَّسَبِ، وإنَّما ابتعثَ اللهُ الرسُلَ مِن نَسَبِ مَن أُرسِلَ إليهم؛ لئلَّا يشمَئِزُّوا مِن الانقيادِ له، ولأنَّهم يَعرِفونَ حقيقتَه، فلا يحتاجونَ أنْ يبحَثوا عنه.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿107﴾

(إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) أي: إنِّي لكم رَسولٌ مِن اللهِ، أمينٌ على وَحيِه الذي بعَثَني به إليكم، فأُبلِّغُكم رسالةَ الله بلا زيادةٍ أو نُقصانٍ. موسوعة التفسير

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ﴿108﴾

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) أي: فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه، وأطيعوني فيما آمُرُكم به، وأنهاكم عنه. موسوعة التفسير

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿109﴾

(وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ) أي: وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم أيَّ ثوابٍ وجَزاءٍ. موسوعة التفسير

(إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) أي: ما أرجو ثوابي إلَّا مِنَ اللهِ الخالِقِ الرَّازِقِ، المالِكِ المدَبِّرِ لجميعِ العالَمينَ. موسوعة التفسير

حكايةُ الأمرِ بالتقوى والإطاعةِ، ونفيِ سؤالِ الأجرِ في هذه القصةِ، والقصصِ التي تَلَتْها، وتصديرُها بذلك؛ للتَّنبيهِ على أنَّ مَبْنى البَعثةِ هو الدُّعاءُ إلى توحيدِ الله، ومعرفةِ الحقّ، والطَّاعةِ فيما يُقرِّبُ المدْعُوَّ إلى الثَّوابِ، ويُبْعِدُه مِنَ العِقابِ، وأنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ مُجمِعون على ذلك، وإنِ اختلَفوا في بعضِ فُروعِ الشَّرائعِ المختلِفةِ باختلافِ الأزمنةِ والأعصارِ، وأنَّهم مُتنزِّهونَ عن المطامعِ الدَّنيَّةِ، والأغراضِ الدُّنيويَّةِ بالكُلِّيَّةِ.

قال ابن عثيمين: فالرُّسُلُ إنَّما يأمُرونَ الناسَ ويَنهَوْنَهم لِمَا يَرجونَه مِن ثوابِ اللهِ، لا لِمَا ينالونَه مِن الأجرِ، وفي هذا دليلٌ على وجوبِ إصلاحِ النيَّةِ لِمَن قام مقامَ الرُّسُلِ بالدعوةِ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ﴿110﴾

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) أي: فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه، وأطيعوني فيما آمُرُكم به وأنهاكم عنه؛ فقد بانَ لكم صِدقي. موسوعة التفسير

قال السعدي: (كرَّر ذلك عليه السلام لتكريرِه دعوةَ قومِه، وطولِ مكثِه في ذلك، كما قال تعالى: فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا [العنكبوت: 14]).

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ ﴿111﴾

(قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ) أي: قال كُبَراءُ قَومِ نُوحٍ المتكَبِّرون عن اتِّباعِ الحَقِّ: أنؤمِنُ لك -يا نوحُ- ونتَّبِعُك، والحالُ أنَّه قد اتَّبعَك الضعفاءُ والفقراءُ وأسافِلُ الناسِ دُونَ ذَوي الشَّرفِ، فكيفَ نتساوى معهم في اتِّباعِك. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: (المعنى: أنَّهم قالوا: لو كان أتْباعُك الملأَ والأشرافَ لاتَّبَعْناك، لكِنْ أتباعُك أراذِلُ النَّاسِ، مِن الفُقراءِ والسُّوقةِ، والذين لا يُقَدِّرون الأمورَ ولا يَعرِفونَها! فهُم أراذِلُهم مِن حيث المالُ -على زعمِهم-. ويمكِنُ أن نقولَ: إنَّهم أراذِلُهم مِن حيث الثقافةُ أيضًا والجاهُ والشرفُ، فهم أرذَلُ الأراذِلِ عندَهم).

قال البقاعي: أي: المؤخَّرون في الحالِ والمآلِ، والأحوالِ والأفعالِ، فيكونَ إيمانُنا بك سببًا لاستوائِنا معهم؟! فلو طرَدْتَهم لم يكُنْ لنا عذرٌ في التخلُّفِ عنك، ولا مانِعٌ مِن اتِّباعِك! فكان ما مُتِّعوا به مِن العَرَضِ الفاني مانعًا لهم عن السَّعادةِ الباقيةِ، وأمَّا الضُّعَفاءُ فانكِسارُ قُلوبِهم، وخُلوُّها عن شاغلٍ؛ موجِبٌ لإقبالِها على الخَيرِ، وقَبولِها له؛ لأنَّ الله تعالى عندَ المنكَسِرةِ قلوبُهم، وهكذا قالت قريشٌ في أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما زالت أتْباعُ الرُّسُلِ كذلك حتى صارت مِن سِماتِهم وأماراتِهم، كما قال هِرَقْلُ في سؤالِه عن أتْباعِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

قال ابن تيمية: بيانُ أنَّ أهلَ الرئاسةِ والشَّرَفِ يكونونَ أبعَدَ عن الانقيادِ إلى عبادةِ اللهِ وطاعتِه؛ لأنَّ حبَّهم للرئاسةِ يمنعُهم ذلك، بخِلافِ المستضعَفينَ.

معلومٌ أنَّ اتِّباعَ الأرذَلِينَ له لا يقدَحُ في صِدقِه، لكِنْ كَرِهوا مُشاركةَ أولئك، كما طلَب المشرِكون مِن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إبعادَ الضُّعَفاءِ؛ كسعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ، وابنِ مسعودٍ، وخَبَّابِ بنِ الأرَتِّ، وعمَّارِ بنِ ياسرٍ، وبلالٍ، ونحوِهم، وكان ذلك بمكَّةَ قبْلَ أن يكونَ في الصَّحابةِ أهلُ الصُّفَّةِ ، فأنزَل اللهُ تبارك وتعالى: وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ * وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ [الأنعام: 52، 53].

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿112﴾

(قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أي: قال نوحٌ لِقَومِه: وما عِلمي بما كان يعمَلُ أتْباعي؟ فأنا لم أُكلَّفِ العِلمَ بأعمالِهم وأحوالِهم الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، وإنَّما أمرني اللهُ أنْ أدعُوَهم إلى الإيمانِ، وأقبَلَ منهم إقرارَهم وتَصديقَهم وانقيادَهم، وأكتفيَ بذلك دونَ النظَرِ إلى بواطِنِهم وحِرَفِهم وصَنائِعِهم. موسوعة التفسير

قال القرطبي: (وكأنَّهم قالوا: إنَّما اتَّبعك هؤلاء الضعفاءُ طمعًا في العِزَّةِ والمالِ، فقال: إنِّي لم أقِفْ على باطِنِ أمْرِهم، وإنَّما إليَّ ظاهِرُهم. وقيل: المعنَى: إنِّي لم أعلَمْ أنَّ اللهَ يَهْديهم ويُضِلُّكم، ويُرشِدُهم ويُغويكم، ويوفِّقُهم ويَخذُلُكم).

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ ﴿113﴾

(إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ) أي: ما حِسابُ أتْباعي إلَّا على ربِّي؛ فهو الذي يعلَمُ السِّرَّ والعلانيةَ، وليس علَيَّ مَعرفةُ أعمالِهم وبواطِنِهم، وإنَّما علَيَّ التَّبليغُ، ولو كنتُم تَعلَمون أنَّ حِسابَهم على اللهِ وحْدَه، وتَشعُرونَ بالأمرِ على حقيقتِه، لَما عِبتُموهم، ولمْ تَسْألوني عنهم؛ فإنْ كان ما جئتُكم به هو الحَقَّ فاتَّبِعوه. موسوعة التفسير

قال البقاعي: (لَوْ تَشْعُرُونَ أي: لو كان لكم نوعُ شعورٍ لَعَلِمتُم ذلك فلمْ تقولوا ما قلتُم ممَّا هو دائرٌ على أمورِ الدُّنيا فقط، ولا نظَرَ له إلى يومِ الحسابِ).

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أُمِرتُ أن أقاتِلَ النَّاسَ حتى يَشهَدوا أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحمَّدًا رَسولُ اللهِ، ويُقيموا الصَّلاةَ، ويُؤتوا الزَّكاةَ، فإذا فعَلوا ذلك عَصَموا مِنِّي دماءَهم وأموالَهم إلَّا بحَقِّ الإسلامِ، وحِسابُهم على اللهِ)).

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿114﴾

(وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ) أي: ولن أطرُدَ مَن آمَنَ باللهِ واتَّبَعني. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ [هود: 29].

قال ابن عثيمين: فيه التواضعُ للمُؤمِنينَ، وعدمُ إبعادِهم، ولو كانوا مَن كانوا فيما بينَ النَّاسِ، والصبرُ على ما يَجِدُ منهم مِن الجَفاءِ؛ فالرسولُ -عليه الصلاةُ والسلامُ- أشرَفُ الخَلْقِ جاهًا عندَ اللهِ، وأعظمُهم منزلةً، عاتَبَه اللهُ في رجُلٍ أعمى، فقال تعالى: عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى [عبس: 1 – 4].

﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿115﴾

(إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ) أي: ما بعَثَني اللهُ إلَّا نذيرًا أُوضِّحُ إنذارَه لكم جميعًا؛ غنيِّكم وفقيرِكم، شريفِكم ووضيعِكم. موسوعة التفسير

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ ﴿116﴾

(قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ) أي: قال المشرِكون مِن قَومِ نُوحٍ: لئِنْ لم تترُكْ -يا نوحُ- دَعوتَك لنا، لَنرجُمَنَّك. موسوعة التفسير

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ ﴿117﴾

(قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ) أي: قال نوحٌ: رَبِّ إنَّ قَومي كذَّبوني فيما جئتُهم به مِن الحَقِّ، فلا نيَّةَ لهم في اتِّباعِه. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ [القمر: 9، 10].

وقال سُبحانَه: قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا [نوح: 5-9].

﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿118﴾

(فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا) أي: فاحكُمْ بيْني وبيْنَ قَومي حُكمًا مِن عندِك، تستأصِلُ وتُهلِكُ به المبطِلَ. موسوعة التفسير

(وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) أي: ونجِّني وأتْباعي المؤمنينَ مِن عذابِك الذي تُنزِلُه على المبطِلينَ. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: (سُمِّي الحُكمُ فتحًا؛ لأنَّه ينفتِحُ به الأمرُ ويتبيَّنُ، فينفصِلُ هذا عن هذا، وهذا الفتحُ بأن ينجِيَه ومَن معه مِن المؤمنينَ، ويُهلِكَهم؛ أمَّا نجاتُه ومَن معه مِن المؤمنينَ فمُصرَّحٌ بها، وأمَّا إهلاكُهم فلا نجاةَ إلَّا مِن هَلَكةٍ، هذا هو الفتحُ الذي سأله نوحٌ أن يُهلِكَ اللهُ تعالى قومَه، وأن ينجيَه هو ومَن معه مِن المؤمنينَ).

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ ﴿119﴾

(فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ) أي: فأنجَيْنا نوحًا ومَن حُمِلَ معه في السَّفينةِ المملوءةِ بالنَّاسِ والحيواناتِ والطُّيورِ وغَيرِها. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ [هود: 40].

وقال سُبحانَه: فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ [العنكبوت: 15].

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ ﴿120﴾

(ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ) أي: ثمَّ أغرَقْنا جميعَ الكافرين الذين بَقُوا، فلمْ يَركَبوا السَّفينةَ. موسوعة التفسير

قال القرطبي: (أي: بعْدَ إنجائنا نوحًا ومَنْ آمَنَ).

كما قال تعالى: فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ [العنكبوت: 14].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿121﴾

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً) أي: إنَّ في إنجاءِ نوحٍ وأتباعِه المؤمنينَ، وإهلاكِ المكَذِّبين به، لَعِظةً وعِبرةً ودَلالةً واضِحةً على توحيدِ اللهِ، وصِدقِ رُسُلِه، وبُطلانِ الشِّركِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً [الفرقان: 37].

(وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ) أي: لم يكُنْ أكثَرُ قَومِ نوحٍ مُؤمِنينَ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ [هود: 40].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿122﴾

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) أي: وإنَّ رَبَّك -يا مُحمَّدُ- لهو العزيزُ القاهِرُ الغالِبُ المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يعاجِلُهم بعَذابِه، ومِن رحمتِه أنَّه يُرسِلُ رُسُلًا، ويُنزِلُ معهم ما يُبَيِّنُ به ما يُرضيه وما يُسخِطُه، فلا يُهلِكُ قومًا إلَّا بعْدَ إعذارِهم، ومِن رحمتِه أنَّه يُنجِّي أتْباعَ رُسُلِه. موسوعة التفسير

قصة نوح عليه السلام: أرسله الله بعد آدم –عليهما السلام–، ظل قوم نوح يعبدون الأصنام دهرًا طويلاً واتخذوها آلهة يرجون منها الخير، ويستدفعون بها الشر، ويردون كل شيء في الحياة إليها، دعوها بمختلف الأسماء ومنها ود وسواع ويغوث ونسر، على حسب ما يملي عليهم الجهل ويزين لهم الهوى، فأرسل الله إليهم رسولاً منهم، وهو نوح –عليه السلام–، وكان رجلاً فصيح اللسان واضح البيان، رزقه الله الصبر والأناة، فأنذرهم بالعقاب فعموا وصموا، ورغبهم في الثواب فوضعوا أصابعهم في آذانهم واستكبروا، ولكنه ناضلهم وجادلهم، ثم صابرهم وطاولهم، فمد لهم حبل أناته، راجيًا من الله أن يستجيبوا لدعوته، ويؤمنوا بالله –عز وجل–، ولم يدع اليأس يسلك سبيلاً إلى قلبه، وجاهد في إبلاغ رسالته حق الجهاد، دعاهم ليلاً ونهارًا، وإعلانًا وإسرارًا، ومع كل ما بذل من جهود لم يؤمن به إلا القلة من قومه، استجابوا لدعوته وصدقوا رسالته، أما الذين طبع الله على قلوبهم فلم يؤمنوا به ولا برسالته، وكانوا من سادة القوم فتمالؤوا عليه، واستهزؤوا به، وسفهوا دعوته ورأيه.

قالوا: مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وواحد منا، ولو أراد الله أن يبعث رسولاً لبعثه ملكًا وأجبنا دعوته، ثم إن الذين آمنوا بك هم الأراذل من القوم وأقلهم، وتعالوا عليه فقالوا: أما نحن –أولي الفطنة والأحلام الراجحة– فلن نقتدي بك، ولو كان خيرًا ما سبقونا إليه.

ثم لجؤوا إلى الجدل وأمضوا في المراوغة وقالوا: ما نرى لك –يا نوح– ولصحبك علينا من فضل، لا في العقل ولا في رعاية المصالح ولا معرفة المعاد، بل نظنكم كاذبين، فأجابهم نوح مع حلمه بهم: أرأيتم لو أني كنت على بينة من ربي وحجة شاهدة بصدق دعواي، وآتاني منه رحمة وفضلاً، فعمي عليكم القصد، واشتبه عليكم الأمر، فهل أستطيع لكم إلزامًا أو أملك لحملكم على الإيمان سلطانًا؟!

قالوا: يا نوح إن أردت لنا هداية وتوفيقًا وأردت لنا نصرًا وإعزازًا فاعمد إلى هؤلاء الذين آمنوا –وقد كانوا يحتقرونهم– وأبعدهم عنك، فإننا لا نستطيع أن نسير على أسلوبهم، فكيف يستوي الأشراف والسوقة –حسب زعمهم–، فقال لهم: إنها دعوة عامة شاملة لكم جميعًا، يستوي فيها الجميع، الأغنياء والفقراء، وهبوني أجبتكم إلى طلبكم وطردتهم، فمن الذي أعتمد عليه في نشر الدعوة وتأييد الرسالة؟! وكيف أطرد قومًا نصروني، ولقيت منكم الصدود والخذلان، ووصلت كلماتي إلى قرارة نفوسهم، وما صادفت منكم إلا الجحود والنكران، وكيف حالي معهم بين يدي الله إذا خاصموني وحاجوني وشكوا إلى الله أني قابلت إحسانهم بالجحود؟! ألا إنكم قوم تجهلون.

ولما اشتد بينهم وبينه الجدل سئموا منه، وضاقت صدورهم به وقالوا: (يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ). فأنكر عليهم نوح، وقال: إنكم تسرفون في الجهل، ومن أنا حتى آتيكم بالعذاب أو أمنعه عنكم؟! ما أنا إلا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ، فأبلغكم ما أمرت به، وأبشركم بالثواب مرة وأنذركم بالعذاب أخرى، إلا أن مرد كل شيء إلى الله، إن شاء هداكم وإن شاء أهلكم وإن شاء عاقبكم.

وقد رزقه الله الصبر على أذاهم، كيف لا وهو من أولي العزم من الرسل، مكث في قومه يدعوهم إلى عبادة الله ألف سنة إلا خمسين عامًا، صابرًا على استهزائهم، أملاً من الله أن يؤمنوا، ولكنهم ما ازدادوا إلا نفورًا من دعوته، ففزع إلى الله شاكيًا ملتجئًا مستعينًا مستهديًا في هؤلاء الذين عجزت حيلته فيهم، ويكاد الأمل ينقطع في إيمانهم، فأوحى الله إليه: (وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)، وعندما نفد صبره ويئس منهم دعا عليهم فقال: (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا).

فاستجاب الله دعاءه، وأوحى إليه: (وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)، فاتخذ مكانًا قاصيًا بعيدًا عن القوم، وأخذ يصنع السفينة وقومه يمرون به ساخرين مستهزئين، وقال بعضهم: إنك -يا نوح- كنت تزعم قبل اليوم أنك نبي ورسول، فكيف أصبحت اليوم نجارًا، أزهدت في النبوة، أم رغبت في النجارة؟! وقال آخرون: ما بال سفينتك تصنعها بعيدة من البحار والأنهار؟! أأعددت الثيران لتجرها، أم تظن أن الهواء يحملها؟! ولكنه أعرض عن استهزائهم فقال: (إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ).

فلما اكتمل بناء السفينة أوحى الله إليه إذا جاء أمرنا وظهرت آياتنا فاعمد إلى سفينتك، وخذ من آمن من قومك وأهلك، واحمل معك من كل زوجين اثنين حتى يأتي أمر الله.

وتفتحت أبواب السماء بالماء، وتفجرت عيون الأرض، وبلغ السيل الزبى، ثم جاوز القيعان والربا، فهرع نوح إلى السفينة، وحمل ما أمره الله بحمله من الإنسان والحيوان والنبات، وسارت باسم الله مجراها ومرساها، سارت والأمواج تحيط بها وتطرح بين طياتها للكافرين قبورًا، ويغلبهم الموت، وأشرف نوح فوق ظهر السفينة فرأى ابنه كنعان، وكانت قد غلبت عليه الشقوة فاعتزل أباه، ورغب عن دينه، رأى ابنه يصارع الأمواج، فدعاه إلى الركوب معهم في السفينة رحمة به وإشفاقًا عليه وحبًّا له، ولكن الابن لم يستجب فقال: (قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ)، فقال نوح -وقد غلبه الهم والوجد-: يا بني: إنه (لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ)، ثم فصل بينهما الموج، فكان من المغرقين، ثم دعا الله وقال: (رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي)، وقد وعدت ووعدك حق أن تنجيني ومن آمن من أهلي، وأنت أحكم الحاكمين، فأوحى الله إليه: (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ).

وحينئذ أدرك نوح أن العطف أذهله عن الحق، وكان أولى به أن يشكر الله على أن نجاه من الغرق مع من آمن به، وأهلك الكافرين، عند ذلك التجأ نوح إلى الله مستغفرًا من ذنبه ومستعيذًا بالله من سخطه فقال: (رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ)، وبعد أن أهلك الله أهل الكفر والعصيان من قومه بالطوفان والغرق كفّت السماء عن إنزال الماء، وابتلعت الأرض

الماء، ورست السفينة على جبل الجودي، وقيل: بُعدًا للقوم الظالمين، وقيل لنوح: اهبط بسلام إلى الأرض أنت ومن آمن معك من قومك، تحفكم البركة، وتكلؤكم عناية الله.